

مايكل أنجلو عاشق في الستين

(١٤٧٥ م - ١٥٦٤ م)

اكتشف موهبته منذ نعومة أظفاره، فلم يترك للزمن صقلها، بل راح يصقلها بنفسه، يتعلم من كل فنان عرفه أو قابله، اهتم بالأدب والشعر بجانب الفن التشكيلي، نسي كل شيء في حياته ماعدا الفن، انطوى على نفسه، لم يهتم بأن يكون له أصدقاء، أو يقبل على ملذات الحياة، بل كان الفن هو لذته الحقيقية وصديقه المخلص، آمن بعبقريته وزادت ثقته في نفسه، ف شعر بالعظمة واحتقر الآخرين، وكلما انتهى من إبداع عمل فني زاد إعجابه بنفسه، واندمج في عمل جديد، وظل هكذا حتى وصل إلى سن الستين، ووسط انهماكه في أعماله الفنية الخالدة، والتي مازالت تبهر كل من يشاهدها، دق الحب قلبه فتعجب، وأخذ يحارب هذا الشعور الغريب عليه، ولكن الحب هو الذى انتصر فى النهاية، فأحب مايكل أنجلو فنان عصر النهضة الكبير، وغير الحب من طباعه فلم يعد الفنان المغرور المصاب بعقدة العظمة، بل أصبح فناناً هادئاً يشعر بلوعة البعاد ولهفة اللقاء، وجمال الوصال، وحنون الانتظار.

ولد المثال والمصور والمعماري والشاعر الإيطالي الكبير مايكل أنجلو بوناروتى Michelangelo Buonarroti فى السادس من شهر مارس سنة

١٤٧٥ م بمدينة كابريزا، ونشأ في أسرة من الرجال فلم تكن له أخت واحدة، بينما كان له أربعة أشقاء، ماتت أمه وتركته طفلاً صغيراً، فأرضعته سيدة يعمل زوجها في نحت الرخام، وأظهر الطفل مايكل ميولا فنية منذ صغره، لكن والده كان يعارض أن يعمل ابنه في الفن، لأن الأب كان قاسياً عابداً للمال، والفن لن يجلب عليه المال الذي ينتظره من ابنه، ومع ذلك اضطر إلى أن يخضع للواقع، وأرسل طفله إلى مثال مشهور يدعى «غرلانديو» ليتدرب على يديه على فن النحت، ويبدو أن هذا الفنان ابتلى بشخصية ضعيفة وعدم الثقة في النفس، ومن هنا بدأ يحقد على الطفل الصغير الموهوب، وانتهاز فرصة طلب الأمير لورنزو دي مديتشى إرسال اثنين من تلاميذه للتدريب، فأرسل مايكل أنجلو ليتخلص منه، ولم يكن يدري أنه يرسله للشهرة والمجد والتفوق.

في هذا القصر وجد فناننا الصغير المناخ الصالح والصحي لنشأته، فأخذ يستفيد من الأمير ولمحاته النقدية، كما أخذ يستمع إلى دروس الأدب والشعر من فحول الأدباء والشعراء، واهتم بتأمل كل أعمال وحركات أستاذه «لورنزو» حتى يستفيد بخبرته، وفي حديقة قصر مديتشى كان الطفل مايكل يعكف على نحت تمثال لرجل طاعن في السن، بينما كان الأمير يمر بالمصادفة فاستوقفته براعة الطفل، وتحدث إليه قائلاً:

«.. ألا توافقنى أن كبار السن غالباً ما يفقدون بعض أسنانهم..»
واقتنع التلميذ بسرعة برأيه الموضوعى فأمسك بأزميله، وبحركة بارعة

كسر أحد أسنان التمثال مما زاد من إعجاب لورنزو به فدعاه إلى مأدته، وسمح له بأن يشارك أولاده اللعب، وجعل له مرتباً شهرياً، وقد أدى وضعه الجديد إلى حقد زملائه عليه، فغافله أحدهم يوماً ولكمه نكمة قوية في أنفه ظل أثرها واضحاً طوال حياته. هكذا كانت طفولة مايكل أنجلو سعيدة بالفن على الرغم من قسوة والده وموت أمه وحقد زملائه، وكان انطوائياً بطبعه يميل إلى الهدوء والابتعاد عن الناس، يقول في اعترافاته إلى أحد أصدقائه:

«.. شعرت منذ حدثتني أن المجتمع عدوى وأن في العزلة خلاصي، وفي التأمل الطويل غذاء لعقلي، وصفاء لروحي، وحفز لقواي الفكرية الخلاقة، ولم أكن قد أولعت بالنحت والتصوير فحسب، بل بالشعر والأدب أيضاً، وشغيت ألوان الجمال التي أفتن الخيال البشري في إبداعها. وهكذا حرمت نفسي من ملذات الصبا، وعكفت على الدرس والتحصيل، والعمل والإنتاج، واهباً حياتي من أجل فني، منقطعاً في سبيله عن العالم..».

لم يهنأ مايكل أنجلو طويلاً في قصر الأمير «لورنزو» إذ مات الأمير سنة ١٤٩٢، وتولى الحكم أخوه بيير الذي كان يعاني من اختلال العقل وسوء التصرف، واضطر مايكل إلى الرحيل عن فلورنسا بعد أن كان سعيداً منعماً في القصر، وعن هذه الفترة في حياته يقول: «... أعجب بي الأمير لورنزو دي ميدتشي واستشعر عبقريتي، وأبى إلا أن تكتمل هذه العبقرية وتنضج على يده، وكان الأمير شاعراً وعالماً ومن هواة

ثقافة الإغريق. فرحب بسى وفتح لى أبواب قصره، وقدمنى إلى أفراد أسرته وإلى الصفوة المختارة من مريديه، فاتصلت هناك بأعظم رجال فلورنسا أمثال المتصوف فينشيانو، والفيلسوف ميراندولا، والشاعر ليزيانو وغيرهم، استمعت لأحاديثهم، وتشربت روحهم الوثنية الإغريقية التى كانت لا تؤمن إلا بالعقل البشرى، والتى كنت أعتقد إذ ذاك أنها المثل الأعلى...».

رحل مايكل أنجلو عن فلورنسا إبان ثورتها على الحاكم المجنون، وعاد بعد انتصار الشعب، ومن هناك نزح إلى روما وعمره واحد وعشرون عاماً، كانت روما حينذاك مدينة الفن والأدب والموسيقى، تحفل بالقصور والآثار القديمة واللىالى الشاعرية والفنية، وعلى الرغم من كل هذا لم يكن فناننا سعيداً بل كان يشعر بالغرابة ويشك فى الناس، قابله الفنان التشكيلى المعروف «رافاييل Raffael» الذى مات فى عيد ميلاده السابع والثلاثين - ولد فى ٦ إبريل سنة ١٤٨٣، وتوفى فى ٦ إبريل سنة ١٥٢٠ - وكان رافاييل لا يمشى إلا وسط حاشيته والمعجبين به، والذين يبلغ عددهم حوالى خمسين شخصاً، وعندما رآه مايكل أنجلو فى هذا الموكب قال له يمازحه: (مالك تسير هكذا كأنك جنرال).. فرد عليه رافاييل: «ومالك تسير هكذا وحيداً كأنك جلال» فى روما كلف مايكل أنجلو بعمل تمثال الرحمة Pieta واستغرق فى إبداعه ثلاث سنوات من سنة ١٤٩٨ إلى سنة ١٥٠١، وهذا التمثال يقع فى كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان الآن، وكان قد تعرض للكسر وتحطيم

أجزاء منه سنة ١٩٧٢ على يد مجنون يدعى «لازلو توت» لكن الأوساط الفنية العالمية اهتمت به ورممته فعاد إلى جماله وروعته، وقد صنعه أنجلو من قطعة رخام واحدة يمثل السيدة العذراء تحنى رأسها الجميل على جسد ابنها يسوع المسيح بعد إنزاله من على الصليب ميتا، وقد أبدع الفنان في تصميمه لوجه العذراء فجعله معبراً عن الحزن والدهشة والظهر في وقت واحد، كما عالج طرحتها ببراعة جعلها وكأنها تتحرك فعلا أمام من يشاهدها، وتمثال الرحمة يرتفع ١٩٥ سنتيمترا كما يزن ٣٠٥٠ كيلوجراما، ويعتبر من المقدسات لأتباع المذهب الكاثوليكي، لأنه أيقونة دينية تضاء لها الشموع، بالإضافة إلى كونه أحد الروائع الفنية العالمية الذي يزوره الناس - على اختلاف أديانهم ومذاهبهم - الفاتيكان لمشاهدته وكان سببا في شهرة الفنان الشاب مايكل أنجلو. بعد ذلك عاد فنانا إلى فلورنسا، وهناك طلب منه صناعة تمثال داود من قطعة رخام كانت مهملة في ساحة الكاتدرائية، وقد عكف أنجلو ثلاث سنوات في عمل التمثال (١٥٠١ - ١٥٠٤) وأخرجه بنفس روعة تمثال الرحمة، وذاع صيت فنانا الشاب الذي لم يكمل الحلقة الثالثة من عمره، وأصبح اسمه يتردد مع كبار فناني عصره في إيطاليا، واستدعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما ليشيد له ضريحا يخلد اسمه مع الأيام، ووافق أنجلو، وبدأ يضع التصميمات ويستجلب الرخام والأحجار والمواد الأخرى اللازمة للبناء، ولكنه فوجئ بالبابا يطلب منه التوقف عن البناء، فقد أقنعه أصدقاؤه والمقربون إليه بأن إقامة الضريح أمر يتعارض مع

الدين، والأولى أن ينفق هذه الأموال في ترميم وزخرفة كنيسة القديس بطرس، غضب مايكل أنجلو من قرار البابا، وبخاصة أنه كان قد بدأ فعلا العمل والتشييد، وعاد مرة أخرى إلى فلورنسا ملجئه الدائم، وطلب منه البابا العودة إلى روما والعمل في كنيسة القديس بطرس، لكنه لم يستجب لنداء البابا عدة مرات، وأخيراً عاد إلى روما فرحب به البابا ترحيباً كبيراً، وعامله معاملة ممتازة دفعته إلى مزيد من الإبداع، وكان البابا يوليوس الثانى محباً للفنون وراعياً لها، وتعال صديقى القارئ نسمع اعترافات أنجلو عن هذه الرحلة كما رواها لأحد أصدقائه، وكما كتبها الأديب الكبير إبراهيم المصرى فى كتابه «فى موكب العظماء».

يقول مايكل أنجلو فى اعترافاته :

«.. أخذت أطلع «الكوميديا الإلهية» للشاعر دانتي، وأقضى الليل ساهراً أقرأ فى الكتب المقدسة. وصرخات الأنبياء والمرسلين تدوى فى أذنى، وتحتنى على تحرير روحى من ربة جسدى.. ولكنى برغم تفتح عقلى على الشعور الدينى، لم ينفذ الإيمان الخالص إلى أعماق قلبى، فلا الرحمة ولا المحبة ولا الصفح ولا الرقة ولا الحنان، استطاعت أن تتمكن منى وتكبح جماح عناصر القوة المضطربة فى كيانى.. كنت أؤمن بالطبيعة الجبارة فقط. بالطبيعة التى تطلب من الإنسان أن يكون قويا. وتأبى أن تشفق عليه إذا لم يكن قويا بل وتحتئه على القوة حتى ولو كان ظالماً. هذا الإيمان الغاشم الأعمى الذى أسرفت فيه إسرافاً تفجر من فرط

إحساسى بقيمة فكرى وعظمة الأعمال الفنية التى ابتدعها خيالى وُلدُ
فى على مرّ الزمن ضرباً من الكبرياء الجامدة الباردة المترفعة، أُلقت
فى روعى أنى أعظم من الناس طراً، بل أعظم من جميع عباقرة عصرى.
فاحتقرت الناس. واحتقرت العصر كله. وارتددت إلى غياهب وحدتى،
وفى نفسى عزة شامخة قاسية لم أقوَ أبداً على قهرها أو تلطيفها، وزاد
فى عزلتى وتكبرى إمعانى فى الخلق والإبداع. وانصرافى إلى تجميل
ذلك المصلى الذى شيده فى الفاتيكان البابا سيكستون الرابع، مصلى
«سيكستين» حيث تجلت عبقريتى. وحيث أمضيت خمس سنوات أرسم
وأنقش على قبة الهيكل نشأة العالم كما جاء فى سفر التكوين، وأمثل
فوضى الطبيعة وهى خارجة من صلب الظلام إلى نور الحياة الساطع..
ولقد عشت معظم هذه السنوات مشدوداً إلى حبل، ومتطلعاً إلى قبة
الهيكل، غائباً عن وعيى، وتائها فى فنى، أحاول أن أخالس روح الله،
وأندمج فى الملأ الأعلى.. ولكنى ما إن هبطت على الأرض حتى افتقدت
نفسى فلم أجدها. كأن الحياة قد انفلتت منى. وكان شبابى قد ضاع فى
غمرة عملى، وكان أيسر متعة فى هذه الدنيا لم تصبح من نصيبى ولا
من حقى. فغشيتنى كآبة ساهمة آسفة مستعصية. فارتميت مرة أخرى
فى عزلتى، ورحت أكتب فى مذكراتى: «ليس لى صديق ولا حبيب، أنا
وحيد على الدوام، ولن أجد أبداً من أخاطبه..».

استطاع مايكل أنجلو أن يثبت أنه فنان تشكلى متكامل شامل، ليس
مثلاً فحسب، فبجانب التماثيل الرائعة التى أبدعها قبل ذلك، مثل

تمثال الرحمة وتمثال داود، قام برسم قصة الخلق فى سقف كنيسة سيكستين، كيف خلق الله آدم ثم حواء؟ وقصة غواية الشيطان لهما وهكذا، يقول محمد شحاته فى كتابه «علماء وفدائيون».

.. من أخلد أعمال أنجلو زخرفة كنيسة سيكستين بالفاتيكان حيث استغرق إنجازه لهذا العمل أربع سنوات متوالية - يذكر أنجلو فى مذكراته أنه قضى خمس سنوات وهو الأصح بالطبع - ظل طوالها مستلقياً على ظهره فوق العوارض الخشبية وهو يرسم ويزخرف، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول عليه غير عامل سحق الألوان، حتى البابا نفسه منعه بحيلة من دخول المكان الذى يعمل به. وبعد أن انتهى عمله الضخم لم يكن يستطيع القراءة إلا إذا كان مستلقياً على ظهره، وإذا رأيته ماشياً رأيت رأسه منحدره إلى الوراء.. لقد تعودت عضلات عينيه على ذلك من طول المدة التى ظل بصره فيها شاخصاً إلى سقف كنيسة سيكستين..

تبلغ مساحة السقف ٥٢٠ متراً مربعاً والارتفاع ١٨ متراً. ولم يمضِ هذا العمل المبدع فى كنيسة سيكستين والذى نال من صحة وحياة أنجلو دون محاولة من زملائه وحساده بالتهوين والتحقيق، وفى كتاب «مذكرات مسافر».

يقول المؤلف: «بعد أن انتهى أنجلو من رسم قصة بداية خلق الإنسان وصور الأنبياء على سقف كنيسة سيكستين ظهر بعض المعارضين

والحاسدين كالعادة، وفي هذه المرة اعترضوا على رسم آدم وحواء عرايا تماما دون ملابس أو حتى سترة. وأجاب أنجلو بأن الإنسان هو من إبداعات الله عز وجل، وأنه خلق هكذا عريان دون ملابس، وأنه يريد أن يكون صادقا مع فنه، ومن هنا رسمه كما خلق، ووقف البابا بجانب رأى الفنان ضد اعتراض الكرادلة، لأنه كان يحب الفنان، ويقدر فنه الرائع، ويتذوق الفنون بعامة..».

مات البابا يوليوس الثانى، وطلب الكرادلة من أنجلو تحقيق رغبته القديمة فى إنشاء الضريح الخاص به، ووافق الفنان احتراماً للبابا الذى اهتم به، ووفاء لمواقفه الجادة والمشجعة له، وشيد الضريح. ظل فناننا يعمل ويبدع طوال حياته، فقد عاش للفن ونسى كل شىء، وتذكر فهيمة أمين سلامة فى كتابها: «قاموس مشاهير الفنانين التشكيليين الأجانب والمصريين» أهم أعمال أنجلو فتقول: «.. أهم أعماله فى صغره تمثال الرحمة، وتمثال دواد، تمثال موسى جالساً [١٥١٥ : ١٥١٦]، تمثال عبد مقيد يحتضر موجود بمتحف اللوفر بباريس، وله تمثالان هما الليل على قبر لورنزو الثانى، والآخر هو الفجر على قبر جيليانودى ميديتشى، وهما موجودان بسان لورنسو بفلورنسا. ولم يكن يعنى بالتنسيق قدر عنايته بالمظاهر القوية، واستطاع أن يتخطى أسلوب عصر النهضة، وأصبح الأب الحقيقى لعصر الباروك» لنا أن نسأل مايكل أنجلو الفنان المبدع عن رحلة حياته وإبداعاته، وهل هو راض عن نفسه؟

يجيب الفنان الكبير ، أهم معالم عصر النهضة فى اعترافاته :
«.. أحسست بما يحس به كل بطل بعد المعركة ، أحسست تلك الرغبة
الملحة فى أن أريح رأسى على صدر محب ومحبوب ، كنت وحيداً إلا من
أحلامى خاوى القلب إلا من لهفتى على امرأة تحبنى وتستطيع أن تملأ
فراغ وجدانى . على أنى كنت من جراء استغراقى فى عملى وتغلبى
على صعوبات فنى وإخضاع تلك الصعوبات المتعاقبة لمشيئتى وسلطانى ،
لا أتصور أنه فى مقدورى أن أقنع بحب امرأة أقل منى عظمة ، امرأة
أراها تتقلب وتتلون وتعبث وتمكر كمعظم النساء.. لهذا أثرت أن أكبح
جماح عواطفى وأخنق نداء الجنس فى بدنى ، وأهذب ما استطعت من
ميولى وأهوائى ، وأتجه بها نحو خدمة الفن وحده..».

ثم يحدثنا أنجلو عن قصة حبه وعشقه وهو فوق الستين من عمره ،
وعن حبيبته التى غيرت رأيه فى المرأة :

«.. هكذا عشت أكثر من ثلاثين سنة لم أقرب فيها امرأة حتى عرفت
«فيتوريا كولونا» فصحوت فجأة ورأيت فى عينيها وجه الدنيا! .. لم
تكن امرأة بل كانت نصف إله .. كانت أديبه وشاعرة ، رائعة الحسن ،
نبيلة النفس ، موفورة الثقافة ، لا حدة فى غرائزها ، لا عنف فى
طبعها ، ولا جموح فى تفكيرها ، بل رصانة هادئة واثقة مطمئنة تنبع
من أعصاب سليمة وعقل راجح ، وضمير حى نقى..».

كانت السيدة فيتوريا كولونا قد تزوجت وهى فى التاسعة عشرة
من عمرها المريكيز «بسكارا» وأحبتة حبا عميقا ، ولكنه تنكر لها بعد

بضعة أعوام من زواجهما، وابتعد عنها، وبقدر حبها العميق له، بقدر استهتاره بها وانغماسه فى القسق والفجور، متخذاً من الخمر والميسر والنساء والقتال غاية لحياته الضائعة.. ومع ذلك فقد ظلت فيتوريا كولونا وفية له، تحبه ولا تفكر لحظة واحدة فى احتمال التطلع إلى رجل غيره.. لم تستمر حياة هذا الزوج المستهتر بل لقي مصرعه فى ساحة الحرب.. ووصل لها خبر مصرعه فاستقبلته بشجاعة وصبر.. ولم يتغير أو يفتر حبها لرجلها على الرغم من استهتاره بها فى حياته، وعلى الرغم أيضا من وفاته.. بل ظلت وفية لذكراه، عاهدت نفسها ألا تكون إلا له، وتعيش على الذكرى على رغم ما فيها من ألم، والعجيب أنها أحبته وهو ميت أكثر مما كانت تحبه وهو حى، وألهمت اللوعة عواطفها، فاستغلت موهبتها الشعرية فى كتابة قصائد عن زوجها تعبر فيها عن حبها له ووفائها لذكراه، وارتباطها به حتى يأتىها الموت، كما ظلت عاصبة جبينها بمنديل حريرى أسود ينم عن حدادها الأبدى.

هذه السيدة النبيلة الوقورة «فيتوريا كولونا» هى التى أحبها مايكل أنجلو بعد وفاة زوجها، وتعال عزيزى القارئ نعرف من اعترافات فناننا الكبير كيف عرفها:

«.. التقيت بها فى روما ذات صباح وكنت فى الحادية والستين من عمرى، وكانت هى قد بلغت السادسة والأربعين.. وراعنى منها ذلك الجمال الساحر المقترن بصفاء العقل ونبل الثقافة واتقاد الخيال.

فأحسست فجأة أن ما حلمت به من كمال الجسد وكمال الروح هو الآن
حتى يترقرق من هاتين العينين الوسنائتين التائمتين، ومن هذا الجسد
الأهيف المجنح المتسق البديع.. وفي مثل وقع الصاعقة تحلل كبرى،
وذابت قسوتى، وانخلع قلبى، ثم تفتحت ينابيعِ روحى، وزايلتني
كآبتي المستعصية واذعنت وأحبيت.. وكنت شيخاً كلل الشيب هامتي..
فاستشعرت الخجل العميق من نفسى.. الخجل العميق من هوى طائش
مشبوب يرجع بى إلى طور حدائتى وجنونى. فهيمت بطرد هذا
الحب عنى. وخنقه فى صدرى. وقتله فى غياهب عزلتى، ولكن مرأى
فيتوريا كان يهيج أعصابى، ويجلد دمى، ويبعث فى أوهام المراهقة
وأحلام الشباب.. أجل.. كانت الطبيعة تنكل بى فى كل ساعة أخلو
فيها بنفسى.. كانت قواى لا تلبث أن تنشط وتتحفز وتغرينى، حتى
تصرعها الشيخوخة الغادرة التى تسرى فى عروقى ودمى، وكنت قد
أرهقت بدنى عملاً متواصلاً، فلم يعد فى مقدوره أن يستجيب لندائى،
ولم يكن لى بد مع ذلك من أن أحب، وأن أحتمل هذا الحب، وأن أعيش
من أجله، وأن أمنحه كل خفقة من قلبى، وكل شعاع من نور يمكن أن
يجود به القدر علىّ فى مغرب حياتى، فامتثلت لحظى، وأخذت أشرب
هذا الحب كيانى، وأبدعه فكرى وأجسمه بتصورى، وأحاول وأنا أضرم
بشعلته فى صدرى أن ألهب ناره أيضاً فى قلب فيتوريا كولونا.. ولكن
المرأة الشامخة، المرأة العاتية، المرأة التى تعيش فى جوف الذكرى.
أشفقت علىّ فقط.. فازداد كمدى. وازداد يأسى، وتمنيت من الله لو أن

موتاً طارئاً يعجل بى وينقذنى..

وأحسست غيرة مروعة من الميت من الشبح ، من الطيف القوى
المرهوب الذى كان ما يفتأ يحوم حول حبيبتى ويسلبها منى فكرهتها.
ثم عدت فعشقتها ، أقرض مثلها الشعر أحاول أن أفرج به عن نفسى ،
وأن أحب فيه فيتوريا كمخلوق عزيز المنال ، علوى سماوى أثيرى تعالى
عن كل دنس. وبرح بى هذا الحب وأذلنى فى رجولتى.. ولكنى صارعت
البقية الباقية من هذه الرجولة الحيوانية وصرعتها ، ومازلت بعقلى
أروضه على العشق الوجدانى المجرد ، ويجسدى أسومه شتى ضروب
الحرمان ، حتى أشرق ذهنى ، وصفت روحى ، وتفوقت شيئاً فشيئاً على
ذاتى الأرضية الفانية ، وأصبحت خليقاً لا بالتطلع إلى الله الذى كان
لم يزل بعيداً عنى ، بل بالتطلع إلى ذلك الجو السماوى الرائع الذى
كانت تسبح فيه فيتوريا كولونا.. وأحبتنى المرأة عندئذ وعطفت على.
ولكنها أحبتنى كوالد وشقيق وصديق. فرضيت بهذا الحب مختاراً ،
ولم أعد أشعر بوجود جسدى. سموت وارتقيت وحلقت واندمجت فى
حبيبتى اندماجاً روحياً عميقاً.. أحسست فيه لأول مرة نعيماً لم أشعر
بمثله عمري أجل كنت أشبه بملاك هام حباً بملاك. فأردت تحت
تأثير فيتوريا أن أضعف أيضاً قوتى وسعادتى ، وأن أستكمل جوانب
نبوغى وعبقريتى ، وأن أتفوق فى الأدب كما تفوقت فى الرسم والنحت ،
فانطلقت أنافس حبيبتى فى قرض الشعر وأبعث إليها بقصائد أصب
فيها عصارة مستقطرة من خالص قلبى ودمى.. وكانت الأيام تجرى..

كانه لا وقت ولا زمن، ولا ليل ولا نهار.. وفجأة تكاثفت سمائي، وتبدد حلمي، وغمر الكون كله ليل لم يعقبه نهار. أصيبت فيتوريا الإلهية بمرض عضال وماتت.. ماتت في أقل من ثلاثة أيام. ماتت هي وبقيت أنا.. أنا الشيخ المحطم المشرد الوحيد، فتاه عقلي، وطافت بي فكرة الانتحار ثم ملكتني واستغرقتني..

نعم أردت أن أموت.. بل أردت أن تعذبني قوة فاتكة هائلة قبل أن أموت، وأن تقطعني هذه القوة إربًا إربًا وأن أرى نفسي أموت.. ولكن كل هذه الرغبات كانت، ويا للحسرة! مجرد أحلام.. لم أستطع أن أقتل نفسي، لم أستطع أن أتصور أنني قد انسلخت عن عقلي الذي أمثل به في فسحة خيالي صورة فيتوريا.. فأردت أن أعيش لأرى هذه الصورة. لأنعم أيضًا بها.. لأخدع الواقع المشئوم وأتخيل أنها ماتزال هنا.. أمامي.. على ملقى اللهفة مني. تنبض وتختلج قوة وحرارة وحياة..

يبدو أن الصورة الوهمية لم تقنع غلتي.. فأردت أن أرسمها.. أن أخلدها، فحاولت جاهدًا مستميتًا، ورسمت من وحي خيالي عدة صور لفيتوريا، ثم صغت لها أربعة تماثيل، ولكن الفن الذي كان بالأمس عيدي وكنت قد أخضعته لمشيئتي خانني لأول مرة واستعصى علي وهزأ مني.. لم أستطع أن أبداع من هيكل فيتوريا عملاً فنياً كاملاً يرضيني.. كنت كلما رسمت لها صورة أوصغت تماثلاً.. أرى في الصورة والتمثال جسدها فقط وجمالها الإنساني فقط.. أما تلك اللمحة الأثيرية الإلهية التي كانت تشع من عينيها. فقد كنت عاجزاً كل العجز عن تأديتها..

كنت مشلولاً أمامها.. كنت كإنسان ملوث بطين الأرض، يحاول عبثاً أن يشق حجب ظلامه وأن ينفذ إلى جوهر السماء.. «عجيب حب مايكل أنجلو هذا، فهو عاشق عجوز، ولكنه يشعر بكل مشاعر الحب الجميل العميق، لهفة اللقاء، ولوعة البعاد، وحزن الموت والفراق، وبدلاً من أن تتحول هذه الطاقة الروحية إلى فن وإبداع وتصميم لصورة حبيبته فيتوريا على شكل صور وتمائيل.. تتوقف العبقرية وتهتز الفرشاة لأول مرة، ثم يمزق فناننا رسوماته ويحطم تماثيله.. ماذا حدث؟ أين مايكل أنجلو الذي أبدع تمثال الرحمة الضخم، وتمثال داود، وتمثال موسى الذي زاد ثقته بنفسه فربط عليه وهو يردد «انطق بقه»..؟

وأين مايكل أنجلو الذي أبدع قصة الخلق منذ بداية آدم وحواء، وظل خمس سنوات ناظراً إلى أعلى يرسم ويبعد؟ إن الحب يمنح صاحبه دائماً طاقة للعمل والإبداع فماذا حدث مع صاحبنا؟ هل السبب في ذلك أنه أحب في سن متأخرة؟ أو لأن حبيبته التي لم ير مثلها قبل ذلك ماتت وتركت له اللوعة والحزن واليأس والضييق والضجر؟. أخذ أنجلو يبحث عن العزاء والسلوى، بعد أن كاد يفقد عقله وحياته لموت حبيبته.. أراد أن يفرج عن نفسه ذات مساء فدخل حانة من حانات اللهو والمرح، وجاءته الغواني الراقصات يطلبن وُدّه، ويحاولن إرضاءه بشتى الطرق، وشرب الخمر، وقضى وقتاً في اللهو والمرح بين الخمر والنساء والشيطان.. وفجأة شعر بتفاهة ما يفعل، وانتابته حالة من الذهول والوجوم، ونفحة نورانية روحية جعلته يترك الحانة، ويهرول إلى بيته بسرعة، إنها لحظة فاصلة في حياته بين الشك والإيمان، بين

الرزيلة والفضيلة، وبين الماضى والحاضر، وفى بيته أمسك بالقلم ونظم
هذه القصيدة:

«.. أين أنا؟.. أنا فى بيت الخطيئة. وهذه هى الخمر، الخمر
المبدعة، تبرق أمامى كالأمل وتسطع كالعزاء. وهذا هو رهط الغانيات
الفاجرات.. يقهقهن فى فرح. ويشربن فى جشع. ويرقصن فى جنون.
كأنما احتواهن من فرط الهوس والطرب شبه إعصار.. وأنا أبحث عن
عقلى فيفر منى. وأصرخ منادياً إرادتى فلا يجيبنى سوى الزئير..
زئير دعوة الحيوان للحيوان مقروناً بجلجلة البغايا ورنين الكئوس..
ما حوجنى إلى نسمة ربيعية ترف على وتحملنى كالجناح، ما أحوجنى
إلى مياه مطهرة وزنايق بيضاء كأطياف ملائكة أبرار!.. الغوانى يتقدمن
صوبى. ويرقصن حولى، ويقدمن لى الكئوس مترعة، ومشعشعة بسنى
الشعاع المتطاير من ضحكاتهن القاصفة، ومن عيونهن الداعية السكرى..
يا لأجسادهن المتثنية كالأغصان، المتموجة كالألحان، الملتوية كالأرقام..
إنى لأوشك أن أمد فى نشوة عنقى، وأمد فى توسل بصرى، وأمد فى
جرأة فمى وشفتى.. ما أحوجنى إلى طوق يغل عنقى، وغشاوة تعمى
بصرى، وموت بارد جارف يختم على فمى وشفتى.. وأسفاه.. الضعف
يأخذنى. والشهوة تسحقنى، والخمر يغمرنى، والغوانى الفاجرات،
كأزهار من نار، يتهاوين مشتعلات بين ذراعى!..
أواه.. لقد خنت فيتوريا وتدهورت وسقطت، فأين المفر أين

الخلاص؟..

إن صوت الفن يقول لى: لا مفر إلا فى الخلق والإبداع.. وحب فيتوريا يقول لى: لا خلاص إلا فى التسليم والانتحار.. وروح الله تهتف فى أذنى: لا نجاة إلا فى كمالى الخالد السرمدى. وها أنا ذا ولأول مرة فى حياتى، أفتح بالرغم منى جميع خلايا ذهنى وجسدى وأنصت إلى روح الله الذى كنت قد شُغلت عنه بأنانيتى وكبرى.. إنه ليتساب فى عروقى كالماء القراح، ويدوى فى سمعى كلحن النقاهاة وفرح الشفاء.. فأقبل علىّ يا الله ولا تتركنى.. كنت قد نسيتك يا الله، فى حين إنك كنت منذ الأبد بجوارى. فأشرق علىّ من ضباب روحى وأنرنى. أنبثق من ظلمات طفولتى وخلصنى، فأنت وحدك الذى يمكن أن تجمعنى بحبيبتى فى رحاب جنتك الطاهرة وتنقذنى..

وهأنذا أنسل من ماخور جسدى وأتبعك.. لقد لمحتك.. لقد عرفتك..

لقد لمست بيدي الآثمة طرف ثوبك يا الله فخذنى..».

بدأ مايكل أنجلو بعد ذلك حياة جديدة مع الله بكل قلبه وإيمانه، وتخلص من الشك، والإيمان بالقوة الجسدية، وتأكد أن هناك حياة أخرى بعد الموت، وأن الإنسان خالد مهما انتهت حياته على الأرض.. وعرف طريقه إلى الصلاة وإلى الكنيسة ليعبد الله.. وعاد إلى عمله يبدع ويرسم، ولم يترك فرشاته وقلمه وأزميله حتى الشهر الأخير فى حياته.. ومات فى ١٢ فبراير سنة ١٥٦٤ عن تسع وثمانين سنة.. مات

أنجلو فنان عصر النهضة وهو يؤمن بأنه سيرى حبيبته فيتوريا ويعيش معها بعد الموت متعانقين عنق الزنابق تحت أقدام عرش الله.